بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تتقدم هذه الصورة لشخصية الإمام الرابع، فتختتم بها محاولات أربعة، لتقديم صورة أئمة أهل السنة. فالحمد لله أولاً وآخرًا أن أتاح للكاتب مخاطبة الجمهرة الواسعة من القارئين بالخصائص الشخصية والعلمية لدى مفكرين عظماء، نتجوا من صميم الجماعة الإسلامية. فجعلوا نماذج حياتهم الشخصية مثلاً عليا تحتذى.

وحياة الإمام في ذاتها إمام

والسير من منابع الشرائع

قلنا في تقديم "أبي حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام سنة ١٩٤٥" ما نكرره اليوم بعد تجارب السنين والأحداث:

"إن أبصارنا في أعقاب هذه الحرب [١] يجب أن تتجه إلى المستقبل والماضي معًا. فلا نقبل على المجهول إلا وفي أيدينا قدر كاف من المعلوم ولا نرد حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصادرنا وارتوينا.. لنلق الدلاء حيث نحن فما أنخر الأعماق عندنا بالكنوز.. ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب الحضارة الغربية التي أوشكت أن تعلن إفلاسها في الحربين الأخيرتين لخلوها من الروح".

والمسلمون اليوم – والعرب نواة الإسلام – يعيشون معارك طاحنة تدور رحاها في الأرض العربية بالحديد والنار، وتدور في سائر الأقطار على أيدي السياسيين أو الاقتصاديين أو المعلمين أو المبشرين أو هؤلاء جميعًا. فما أحوج المسلمين إلى أن يراجعوا البصر وأن يلقوا دلاءهم في ينابيعهم.

---

(١) الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥.

obeikandl.com

وصدق رسول الله ﷺ: "مثل أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره".

* * *

وهذا إمام المسلمين أحمد بن حنبل. أجاءته السماء إلى عاصمة الخلافة في قرن نجم فيه الخطر على الأمة الإسلامية والدولة العربية من الدول المعادية والملل المغاضبة والنحل المتصارعة.. فكانت طريقة حياته، وأصول نظرياته، وفروع تطبيقاته، حلولاً حاسمة لمشاكلها كلها.

وعندما يحل الرجل مشكلة في جيله يخلع عليه الناس من أوصاف دنياهم نعت العظمة، ويرفعونه درجة أو درجات كلما حل مشكلة أو مشكلات... بيد أن الأوصاف تقل عن الرجل، يوم يحل كل المشاكل، أو يحلها لكل الأجيال.

والرجال من طراز أحمد يجرون في فلك مرسوم، فلا غرو أن كانت السنة فلكه. تجارت فيه "طريقة الحياة" التي حييها "والمهمة" التي نذر نفسه لها "والغاية" التي تغياها. فطوعت له الصياغة المنهجية المنجحة للقيم الإسلامية العلمية والعملية فصيرها في "حالة عمل" دائم التخريج الأحكام. تبغي بها الأنفس ذروة النزاهة في الحياة الواقعة فتشارفها، ويعملها الفكر لاستنباط الفقه فتواتيه الأحكام في شمول ويسر.

ولما بايعته الأمة بأنه "أشمر الأئمة بإمامة السنة" كانت البيعة كرجع الصدى للصوت المهيب الذي وحدها، ونشد السلام، وأعز الإسلام. وغدا حجة لله عليها بأن السبيل الوحيد لصلاح حالها هو الرجوع الصادق إلى القرآن والسنة. وهي حقيقة كبرى في تاريخ العالم وقوة عظمى لتقدم المسلمين يحسب حسابها الذين يراقبونهم من الشاطئ الآخر لتقدير قواهم ومعرفة حقيقتهم. يقول المستشرق لاوست: "ما من مرة هوجم الإسلام سياسيًا أو عسكريًا إلا اتجه نحو المذهب الحنبلي الذي ينادي في قوة وحماس بالرجوع إلى السنة".

ومن فتوح السنة أتيح لأحمد أن يكشف الداء، ويصف الداء، ويصنعه بيده، ويقدمه على حسابه... وهو بكل منزلة من هذه المنازل إمام:

يطلب لنسه وعصره بالنزاهة والزهد فيضرب الأمثال من نفسه.

ويصبح عنوانًا على نزاهة الفكر لدى المشرعين والحكام، في كل عصر، وعلى الزهادة والدأب مع الرجاء في فضل السماء لدى الرجل العادي، يعالج بها كل أدوائه.

ويرى الإصلاح الفقهي والاجتماعي في توحيد منهج الأمة على النصوص، لكنه يجد نصوص السنة تفاريق في صدور الحفظة، فينهض لجمعها بنفسه، وتدوينها بيده، وتدريسها في حلقته. فيقوم وحده بما يقوم به فيلق من الرجال في أجيال.

ويعلن كفايتها لإنتاج الأحكام الفقهية، كافة، فيقدم ثبتًا على ذلك تطبيقاته اليومية المعلمة، في ستين ألف مسألة، على مدار نصف قرن من الزمن.

وفي موقف واحد وقفه هذا الرجل الواحد وقى المسلمين آفات الخلافات التي دمرت أممًا أخرى بالشحناء حول الآراء بين القساوسة وبين زعماء الكنائس، أو بين هؤلاء وأولاء وبين ملوك الأرض، يجيش لها الملايين وتطول الحروب عشرات السنين وتتساقط الرؤوس في محاكم التفتيش، وتتلاحق المذابح التي يدبرها الملوك والقسيسون – وكان المسلمون في الأندلس من ضحاياها – وتتابع الهجرات إلى القارات القديمة والجديدة في التماس النجاة بالعقيدة، وتنقض الإمبراطورية التي جمع فيها شارلمان أوربة من قرون ثمانية!

وإنما نظر إمام المسلمين إلى المستقبل في نور الحنيفية السمحة. واعتصموا بحبل الله جميعًا ولم يتفرقوا فذهب ريحهم.

* * *

وحقيق علينا وقد عرضنا أطرافًا من صور الأئمة الأربعة وسيرهم، في إطارها التشريعي والتاريخي المقطوع القرين، أن نقول الحق ومعنا دلائله.

١- إن الفقه الإسلامي الذي ترتفع أعلامه عالية فوق آفاق الشرائع الأخرى ممثل صادق لشريعة الإسلام وللفكر الإسلامي كله. وأداة باصرة صقلتها التجارب للنماء الاقتصادي والتقدم العلمي والاجتماعي والسياسي.

٢- إن المسلمين يتقدمون أو يتأخرون قدر ما يتقدمون أو يتقهقرون أو يبعدون من الشريعة التي جعلتهم خير أمة أخرجت للناس.

وسنرى، بعد، أمارات كالعلامات من فقه أحمد تسجل للشريعة سبقًا لا يشق له الفقه العصري المقارن غبارًا، لما فيها من آيات الرحمة والإنسانية والحرية القانونية والسماحة الاجتماعية والاقتدار على التطور.

٣- والكاتب كجميع الذين عالجوا شرائع الغرب وطبقوها في الأقطار العربية أو الغربية، يرى التشريع الإسلامي أرحب التشريعات آفاقًا وأنبلها غايات وأطوعها أدوات، واجتمعوا للنزاهة القانونية وسلطان الإرادة وحرية التصرف والحفاظ على المصلحة العامة والخاصة وحقوق الرجل والمرأة.

(صنُعَ الله الذي أتقن كُلَّ شيء)

ومن أجل هذا تتعالى الأصوات، وتتواتر الاستجابات في القوانين والدساتير بمصر والعراق وسورية وليبيا والكويت والجزائر والمغرب واليمن وغيرها، باتخاذ الشريعة الإسلامية مصدًا أساسيًا للتقنين.

أما المملكة العربية السعودية فقانونها هو الشريعة، ومذهبها مذهب أحمد بن حنبل.

وسيظهر القارئ على مصداق ما نقول في النزر اليسير الذي صادفته الألوان العلمية والفهقية والاجتماعية التي استخدمها الكاتب لتصوير شخصية الإمام.

<u>وسيظهر على حقائق مسلمة أخرى سجلها القرنان الأخيران، حسبنا منها الآن.</u>

١- إن الدول الإسلامية التي صرفها الاستعمار الغربي إلى تشريعات أوربة قد انصرفت راغمة إلى الآبار الصغار، عن النهر العظيم الذي يجري في ثراها.

٢- أن رجوع الفقه إلى الشريعة كمثل عودة الغريب إلى وطنه، والمريض إلى ترياقه، حيث تحكم نصوص الشريعة وفحواها أسرته الصغيرة وهي العائلة، وأسرته الكبيرة وهي الأمة، وخصائص البيئة وأفكار الأشخاص.

٣- إن أحكام هذه الشريعة وتطبيقاتها الناجحة ثبتت على الامتحان أربعة عشر قرنًا مديدة على كيان الزمان، عريضة على وجه كرة الأرض، مع الاستقرار والاستمرار.

ولقد آن لن أن نعود إلى أنفسنا وتصبح حضارتنا الصبغة التي فطرت عليها.

(ومن أحسنُ من الله صبغة)

* * *

لقد بدأت الحضارة الغربية المعاصرة منطلقها في عصر النهضة الأوروبية من الأديرة والجامعات التي كانت تتداول العلوم الإسلامية، منبهرة بحرية الفكر والمنجزات التي حققها العلماء الإسلاميون الفلكيون والرياضيون والكيميائيون والاجتماعيون في قرون ثمانية، فتابعت منهجهم الفكري، منهج الاستقرار والتجربة والاستخلاص، وهو منهج الفقه الإسلامي ذاته. من استقراء الجزئيات والامتحان النزيه لها وتحقيق العلل وتنقيحها، والجمع بين المتماثلات وتحقيق الوصف الجامع وترتيب النتائج، مع الاجتهاد وطلب العلم الذي هو واجب كل على مسلم ومسلمة، في أمة يدعوها كتابها الكريم إلى تأمل صنع الله وسنته، واستنباط أحكامه من آياته الباهرة، وهو هو منهج العلماء الإسلاميين التجريبي يعلنه بوضوح في القرن الثاني للهجرة – الثامن للميلاد – جابر بن حيان "أول من استحق لقب كيميائي" كما يصفه الغرب، حيث يقول: "عملته بيدي – وبعقلي – وبحثته حتى صح وامتحنته فما كذب".

ولما قال "روجير بيكون" في القرن الثالث عشر للميلاد: "إن علوم العرب هي الطريقة الوحيدة إلى المعرفة" كانت تدوي بنقوله والمئات من أمثاله قاعات الجامعات التي تتداول علوم الغرب أو التي أنشئ لترجمة علومهم خاصة، في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا ليستمر تيار الفكر الإنساني في التدفق حاملاً أعلام الحرية الفكرية التي ينادي بها العلماء المسلمون.

وما كان "فرنسيس بيكون" في القرن السادس عشر إلا واحدًا من نقلة المنهج التجريبي إلى قومه لتبتعد به أوربة عن القهر الكنسي الذي أوقف التقدم.. وبالمنهج التجريبي والفكر المتحرر بلغت الحضارة الغربية مبالغها الحالية.

والتاريخ الذي يؤثر لقيصر، منذ القرن الأول، مساواته بين رعاياه، على غزواته للشرق والغرب. ولجوستنيان، منذ القرن السادس، وصف "مشروع الحضارة الرومانية" على انتصاراته بين أسيا والمحيط الأطلسي. ولنابليون، في القرن التاسع عشر، اقتران اسمه "بقانون نابليون" على مواقعه الستين – إن هذا التاريخ يحني الهامات مرات أمام شريعة الإسلام، وقوامها المساواة الفطرية بين البشر والمشروعية في كل تصرف والعدالة المطلقة للناس وحرية الفكر والعقيدة.

لنرفع الرءوس عالية بأصول الفقه الإسلامي التي تحكم فكر العالم الإسلامي من فجر الإسلام ومناهج الفكر العالمي في عصر النهضة الأوروبية.

ولنرفع الرءوس عالية برجال قعدوا قواعده وطبقوها وأثبتوا أنها عصرية في كل عصر ألا وإن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها..

والطريق الطويل أوله خطوة.

والكلمة الأخيرة لم يقلها أحد بعد.

obeikandl.com